

التنشئة الاجتماعية للطفل بين المسموح والممنوع (الجسد أنموذجا)

أ.د. فاطمة ميدان

قسم علم الاجتماع - جامعة وهران 2.

الملخص:

تتناول هذه الدراسة الطريقة التي تنقل بها القواعد السلوكية والأفكار والمعتقدات والقيم المتعلقة بالجسد عبر عملية التنشئة الاجتماعية والتي يحرص القائمون عليها على نقلها بنفس الطريقة التي نقلت إليهم. تبدأ عملية إعداد الطفل وتهيئته لوضعه في القوالب المتعارف عليها اجتماعيا والتي عليه أن يمثل لها ويتصرف من خلالها منذ اللحظة الأولى لولادته. يتعلم الفرد عبر هذه العملية التفرقة بين السلوك والتصرف المسموح به اجتماعيا وذلك السلوك الذي يرفضه المجتمع ولا يسمح به، أي السلوك الممنوع. كما يُركز البحث على الكيفية التي ينقل بها الأولياء الأفكار والمعتقدات حول موضوع الجسد وكيفية التعامل معه والاقتراب منه. لا تقتصر العملية على نقل القيم والمعايير فقط وإنما تتعداه إلى المخاوف والإحباط، أي إلى الجوانب النفسية التي تنقل هي أيضا، حيث تتم العملية بحذر شديد ويحرص الآباء على تغليف أجوبتهم بالأكاذيب والخرافات غير آبهين بحاجات الطفل إلى تفسيرات وأجوبة.

الكلمات المفتاحية: التنشئة الاجتماعية، الطفل، الجسد، القواعد السلوكية، الممنوع والمسموح به.

Accepted and Improper Behaviours in Child Socialisation: Body Codes as a Case study

Abstract:

The paper aims at discussing issues related to socialisation and the shaping of our behaviour, the way we are, and our thoughts. Since the moment we are born, we are being moulded into the beings the society wants us to be, and through socialisation we also learn the difference between the "Accepted" and the "Improper" conducts and behaviours for both gender.

This paper will focus on how parents and family transmit codes of conducts, ideas, beliefs and values. Socialisation begins at home, where parents have the opportunity to emphasize their most deeply held values. From a very young age, children are exposed to discourses about body, nudity, privacy, and specific gender education about proper conduct. Parental responses to early infant queries about their bodies are covered with untruthful explanations. Parents, in their role as transmitters of values and codes of the society, teach their children the behavioural relation between the Body and the Accepted-Forbidden conducts. By doing so, they transmit their own values without taking into account the kids' needs for answers about the reasons behind the codes of conduct and for understanding values of society.

Keywords: Socialisation, Children, Body, Codes of Conduct, Accepted and Improper Behaviours.

مقدمة

يُعتبر موضوع الجسد من المواضيع الحساسة في مجتمعاتنا العربية الإسلامية لما يتضمنه من معاني وتأويلات ومخاوف لازالت إلى اليوم تُطرق باحتشام شديد، إن لم نقل بنوع من السرية. وعادة ما يثير الجسد نوعاً من الرهبة لدى الأولياء والمشرفين على تربية الأطفال، لأن الصورة والمفهوم مقرونان لدى الجميع بـ"الطابوهات" الجنسية. يحوم حول الموضوع تكتم وصمت، إذ تُلصق بالجسم نعوت القذارة والعيب والدونية، مما يثير فضول الأطفال إزاء هذا "المسكوت" عنه الذي بقدر ما يريح الآباء فإنه يقلق الأطفال ويجعلهم معقدين تجاه ذلك الشيء الغريب، جسدهم. تشمل مسألة الجسد الإطار القيمي والأخلاقي للبيئة الاجتماعية التي يتواجد فيها الفرد وكذا عملية الإدراك، حيث أن الموضوع برمته مدرك على أنه من المحظورات المتعارف عليها اجتماعياً.

لم يعد بالإمكان إبقاء النقاش حول هذه الطابوهات ممكناً في عصر العولمة والانفتاح على الآخر وفي زمن اخترقت فيه تكنولوجيات الاتصال الحديثة خصوصية الأسرة، إذ أضحت يندرج ضمن العملية التربوية التي يتعرف الأطفال من خلالها على أجسادهم ووظائف أعضائهم. ومكنت التحولات التي يعيشها الشباب من التخلص إلى حد ما من الموروث الثقالي الثقيل والأفكار المحيطة بموضوع الجسد والذي تناقلته الأجيال عبر عملية التنشئة الاجتماعية.

إن أنماط التنشئة التي يتلقاها الطفل، وعمليات التفاعل الاجتماعي، إضافة إلى البيئة الاجتماعية التي يتواجد فيها وأساليب المعاملة الأبوية، تساهم كلها في تشكيل صورة الجسد لديه؛ لأن الصورة من صنع الأوضاع الاجتماعية والانفعالات التي تؤثر على الإدراك والسلوك. كما تلعب الحالة النفسية التي يمر بها الفرد دوراً مهماً في تشكيل الصورة. ومن هذا المنطلق تتكون الصورة بثلاثة أبعاد: بُعد وجداني، وبُعد إدراكي وآخر سلوكي (Caroll, 1989: 26). تصبح الصورة بهذه الطريقة من صنع الأوضاع الاجتماعية والانفعالات التي تؤثر على الإدراك والسلوك، والتجارب التي مر بها الطفل عبر عملية التنشئة الاجتماعية.

تُحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على جانب من "المسكوت عنه" في عملية التنشئة الاجتماعية للطفل في معظم المجتمعات العربية الإسلامية، وهي فكرة الجسد التي تُعد "طابوها" ثقافياً واجتماعياً بامتياز.

يتمحور الموضوع حول إشكالية تتلخص في مجموعة من الأسئلة:

- كيف يتعرف الطفل من خلال عملية التنشئة على الأساليب السلوكية الممنوعة والتي عليه أن يمثل لها كآسلوب حياة؟
- لماذا يتعامل القارئون عن التنشئة الاجتماعية بشائبة المسموح والممنوع؟
- كيف ينقل القارئون عن التنشئة التصورات التي يحملونها عن الجسد إلى الأطفال؟

- هل يمارس المنشئ دور "حارس البوابة" في عملية التنشئة؟ ❖

لن نتطرق في هذه الدراسة إلى مؤسسات التنشئة الاجتماعية ولا إلى روادها، وإنما إلى كيفية نقل فكرة الجسد عبر عملية التنشئة، ولماذا ينحاز المربون إلى بعض الأعضاء في جسد الطفل دون الأخرى بهدف

إكسابه السلوك الذي ترضيه الجماعة⁹. فالعملية هي عملية نقل تتم بين طرفين، طرف ناشئ وآخر يحتاج إلى تنشئة.

التنشئة الاجتماعية والموروث:

يرى علماء النفس أن التنشئة الاجتماعية هي عملية تحقيق للتوازن بين نزوات الفرد ورغبات المجتمع، بحيث يمكن تهذيب هذه النزوات وتحويلها إلى سلوكيات مقبولة اجتماعياً، ولا يكون هذا إلا مع بداية الطفولة (أبوجادو، 1999: 123).

أما علماء الأنثروبولوجيا فيعتبرون التنشئة عملية امتصاص من طرف الطفل لثقافة المجتمع عبر المواقف الاجتماعية المختلفة التي يتعرض لها أثناء الطفولة. وترى روث بندكت Ruth Benedict ومرغريت ميد Margaret Mead أن نقل الثقافة إلى الفرد ليست عملية تعليمية،

فالطفل يكتسب ثقافة المجتمع بشكل تلقائي من خلال أساليب الثواب والعقاب التي يتعرض لها في مرحلة الطفولة (Bollit & Schmit, 2002 : 75).

إن الهدف من عملية النقل هو التوفيق بين دافع الفرد وغرائزه وبين قيم المجتمع، بغرض تحقيق الاندماج والتكيف الاجتماعي وتكوين علاقات سوية تمكن الفرد من التفاعل الإيجابي .

يتعرف الطفل من خلال عملية النقل على وظيفته الاجتماعية التي تمتد من الميلاد إلى الوفاة، إنها عملية غير مقيدة بالزمن أو بالسن، ومن خلالها يكتسب الفرد القيم والعادات والتقاليد السائدة في المجتمع، أي المسموح به والممنوع اجتماعياً. وفي هذه المرحلة يُصقل نفسياً وجسدياً بواسطة التجارب والأوضاع الاجتماعية التي تُثقل إليه من طرف القائمين على العملية.

تعتبر الطفولة مرحلة من أهم مراحل نمو الشخصية، تتأثر بمجموعة من المؤثرات نتيجة نوعية التنشئة التي يتلقاها الطفل، وهي التي تعرف بالتنشئة الأسرية، وقد عرفها Guy Rochih بـ: "السيرورة التي يكتسب الإنسان عن طريقها ويستتبط منها طوال حياته العناصر الاجتماعية الثقافية السائدة في محيطه ويدخلها في بناء شخصيته" (Dubar, 1999 : 145). يتم كل هذا عن طريق التجارب والخبرات التي يعيشها الفرد، وتُكسبه دلالات ومعاني تهيئه للتكيف مع البيئة الاجتماعية والثقافية التي سيعيش فيها.

تحدث عملية التنشئة الاجتماعية بين أطراف مختلفة يكون لها الأثر البالغ على تربية الطفل ونموه الانفعالي، والإدراكي، والاجتماعي. يمثل الوالدان أول الأطراف الأساسية في العملية بحكم تواجدهم مع الطفل منذ ولادته، ثم يأتي أفراد الأسرة الآخرين المتواجدين والقريبين من الطفل، ثم تتولى المؤسسات التربوية والاجتماعية الأخرى، وحتى الاقتصادية، مواصلة المهمة، دون أن ننسى ما للأصدقاء وجماعة الرفاق وأبناء الحي من دور حيوي في إكساب الطفل قيم ومعايير الجماعة التي ينتمي إليها. وعليه، سوف نقصر تحليلنا في هذه الدراسة على الأسرة لما لها من دور حيوي ورئيسي في التنشئة حيث تعتبر المؤسسة الأولى التي يتواجد فيها الطفل.

الأسرة والتنشئة

تعتبر الأسرة ذاكرة المجتمع والحاضن الثقافي والمحافظ على الإطار المرجعي للقيم والعادات والمعايير والهوية، كما تسهر على استمرارها وبقائها بوصفها نظاماً للتفاعل الاجتماعي والثقافي داخل المجتمع، حيث يكون لوحدة التربية الأثر الكبير في تشكيل السلوكيات والتصرفات التي يُقرها ويتقبلها المجتمع والجماعة.

يُعرف Guy Rochih الأسرة بأنها "الإطار الاجتماعي الذي يفتح فيه الطفل عيناه على العالم وهي الوسط الذي يتكفل بتزويده بعناصر التنشئة والتكوين والأمان، وهي عناصر بعضها وجداني وبعضها عقلي، والبعض الآخر سلوكي، لا بد من تفاعلها لتحقيق النضج" (165 : Dubar, 1999).

تعتمد التنشئة الأسرية بالأساس على الأسرة حيث يتواجد الطفل طوال الوقت ويلقن أساليب الحياة، إذ يسهر المنشئون على تربيته عن طريق تقطير العادات والتقاليد وكل ما يؤهله ليصبح كائناً اجتماعياً. وتُعتبر هذه العملية أول برمجة يكتسبها الإنسان في حياته من الوالدين، فهما اللذان يعلمان الطفل الكلمات ومعانيها، وتعايير الوجه ومعنى الأحاسيس، والقيم، والمعايير، والاعتقادات الدينية، والمبادئ والمثل العليا، وهي التي تُكسب الطفل السلوك الاجتماعي الذي يؤهله للاندماج في المجتمع.

آليات عملية التنشئة الأسرية

تتم عملية التنشئة وفق نسق ثقافي يتضمن معايير ثقافية راسخة ومبرمجة، ومرهونة إلى حد كبير بطبيعة ومستوى تطور الثقافة في المجتمع. فالطفل يتعرف عن طريقها على كيفية التعامل مع المشاكل التي تواجهه وكيف ينظر إلى ذاته. كما يحدد القائمون على عملية التنشئة المواقف الاجتماعية التي يقابلها الطفل خلال سنوات طفولته الأولى.

لا تتوقف عملية التنشئة الاجتماعية بين المنشئ والمنشئ على نقل ثقافة المجتمع وقيمه وسلوكياته، بل تتعداه إلى الجانب الوجداني كالشكوك، والمخاوف، والمواقف من بعض القضايا الشائكة والمعقدة على جميع الأصعدة الاجتماعية، الثقافية، النفسية والعقائدية.

تتعدى عملية التنشئة كل ما هو تربوي لتتغل ما هو نفسي، لأن هدف المنشئ من العملية هو نقل السلوك الذي تتقبله الجماعة إلى الناشئ. فالأسرة تختار من البيئة الثقافية ما تراه هاماً ومناسباً وتنقله وفق اتجاهاتها ومعاييرها؛ فما يُنقل من الميراث الثقافي للمجتمع، وما يُختار، ويُفسر، ويُقوّم، ويُستصدر من أحكام، يكون من وجهة نظر "حارس البوابة" (Lottisse, 2009 : 13)، أي الشخص (أو الأشخاص) القائم على التنشئة، والذي يُقرر الصواب من الخطأ. فحارس البوابة يسهر على تصفية ما يمر عبر البوابة حتى يتوافق ويتمشى مع ما يراه مناسباً، بعد إخضاعه لثنائية المسموح والممنوع. فيحرص الحارس كل الحرص على غرلة المعلومات في إطار هذه الثنائية التي يتبناها ليختار من بينها ما يراه أنسب وأصح للناشئ المتلقن.

من هذا المنطلق يمكننا القول أن التنشئة الأسرية والاجتماعية ما هي إلا عملية تطبيع، تكيف وضبط اجتماعي. وبفضلها يصبح الطفل ناقلاً مطيعاً وخاضعاً، وتصبح العملية ذات اتجاهين: ردع للطفل عن كل ما هو ممنوع اجتماعياً، وتشجيع على فعل ما هو مسموح به.

مفهوم المسموح والممنوع

يتشكل العالم الاجتماعي حسب بورديو Pierre Bourdieu من: " مجموعة من البنى الموضوعية التي تتشكل من خلال الفاعلين وعندما تتشكل تؤثر في الأفعال" (Bourdieu, 2000 : 27)، ويرى أن هناك مستويان اثنان في

العالم الاجتماعي: المستوى الموضوعي والمستوى الذاتي (Bourdieu, 2000 : 15).

- يتشكل المستوى الموضوعي من النظم الاجتماعية، رأس المال الاجتماعي والثقافي والرمزي.
- ويتشكل المستوى الذاتي من الأشكال الجسدية، العقلية، طرق التفكير، المشاعر والأحكام الاجتماعية.

وإذا اعتبرنا أن التنشئة الاجتماعية فعلاً اجتماعياً والمنشئ فاعلاً اجتماعياً، فإن هذا الأخير يعتقد أثناء تأديته لدوره الاجتماعي أنه يحمل الحقيقة والتي بالنسبة إليه عبارة عن منظومة متوارثة متناسقة من الأفكار والمعتقدات والخبرات والإحباط التي مرّ بها، نُقلت من جيل إلى جيل بأمانة وبطريقة ثابتة غير قابلة للتغيير. هذه الحقيقة التي يعتبرها Foucault فوكو حدثاً تاريخياً (فوكو، ترجمة المسناوي، 2006: 77) يلتزم بها الأفراد، ولا تحتمل تأويلاً غير الذي يُقدمه المنشئ.

تلعب الأم دور الفاعل الاجتماعي، وهي أول ممثل للمجتمع والحاضن الثقافي، فهي التي تنقل ما تراه صواباً ومسموحاً به، وتقف سداً أمام ما تراه خطأً وممنوعاً. إنها "حارسة بوابة" بامتياز لأنها تملك "الحقيقة". فهل لدى هذا المنشئ القدرة على إيصال هذه "الحقيقة" وفقاً لمعطيات الطبيعة الإنسانية الفردية؟

إن التنشئة والتربية لا يجب أن تقتصر فقط على الحاجات الفيزيولوجية التي ذكرها Maslow ماسلو (9 : Maslow, 2013) في سلم الحاجات، وإنما تتوسع إلى بناء الشخصية والحاجة إلى الإشباع المعرفي والاجتماعي والانفعالي. فالطفل يحاول دائماً اكتشاف محيطه ويطلب تفسيراً لما يجري حوله حتى يتسنى له إشباع هذه الحاجات وفهم البيئة التي تحيط به.

الطفل والإدراك الجسدي

تعتبر المدرسة السلوكية السنوات الخمس الأولى مهمة جداً في حياة الطفل، ففي الأشهر الستة الأولى يتم الاكتشاف الجنسي الحركي ومن بينها اكتشاف الأعضاء التناسلية. وفي عمر السنتين يبدأ السلوك الجنسي في

الظهور وهذا بلمس العضو التناسلي خاصة عند الاستحمام أو ارتداء الملابس. وتستمر هذه الحالة إلى سن الأربع ثم تبدأ بالاختفاء تدريجياً. تعتبر عملية اللمس هذه أمراً عادياً بالنسبة للطفل، لأنه غير مدرك لوظيفة العضو ولا إلى تقسيم الجسد إلى أعضاء مسموح لمسها وأخرى يمنع الاقتراب منها.

يشير فريدريك كوهن في كتابه الطفل والجنس إلى أن "جميع الصغار يحتاجون إلى أجسامهم، فهم يحتكون بها ويحسون بدور الاحتضان، ويعانون التعاطف الجسدي الذي يعد أساس تكون شعور الثقة لدى الصغير بنفسه وبالعالم من حوله" (كهن، 1998: 8). ويضيف: "للطفل نزعة طبيعية للاكتشاف التلقائي وإمتاع الذات بطريقة بريئة" (كهن، 1998: 127).

يولد مجمل الأطفال متكاملين البنية والأعضاء، ولكل عضو وظيفته التي لا تكتمل إلا بالفعل والممارسة. إذ يتعرف الطفل على جسده عن طريق اللمس واللعب بجميع أعضاء هذا الجسد، منها التناسلية، وعن طريق اللمس تبقى الصورة الجسدية ثابتة في ذهن الطفل ودائمة بعد تكوينها.

وترى مدرسة التحليل النفسي أن السلوك الاستكشافي الجنسي عند الطفل أمراً طبيعياً، وأن اللمس ما هو إلا تعبير عن خوف معين نابع من الغموض والقلق الذي يرافق اكتشاف الفوارق الجنسية (Freud, 1989 : 53).

ويشرح فرويد أن اهتمامات الطفل الجنسية تتحول إلى سلوكيات غير جنسية في سن المدرسة، حيث أن المدرسة تقنن هذا السلوك وتوضع القيود والموانع على الألعاب الشبه جنسية فيتحوّل اهتمام الطفل بعيداً عن هذه المسائل.

أجرت كارولين جولدمان Goldman بحثاً شمل 800 طفل في سن المدرسة من استراليا وأمريكا الشمالية، بريطانيا والسويد وأثبت فيه خطأ فرويد (Goldman, 2005). فالسلوك الجنسي لا يختفي إذا في سن المدرسة حسب هذه الدراسات، وإنما يستمر ويتواصل إلى سن المراهقة ويأخذ أشكالاً أخرى.

ويُعتبر الإدراك الجنسي محورا مهما من محاور الحياة، وهو مرتبط بالنمو النفسي الجسمي من الطفولة إلى النضج، مروراً بمرحلة المراهقة. وتتضمن العلاقات الجنسية السليمة قوانين ومفاهيم وقيم تُثقل عبر الأجيال

عن طريق التثنية الاجتماعية. ومن بين الأولويات في عملية التثنية الجسدية إدراك الطفل للجنس الذي ينتمي إليه، هذا الإدراك يُشعره بالراحة النفسية حيث أن الطفل وفي حدود سن الثالثة يكتشف الاختلافات التشريحية بين الجنسين، وفي سن الخامسة يزداد اهتمامه وينتقل هذا الاهتمام إلى جسد الآخر، كما تظهر في هذه المرحلة "الفضولية الجنسية" عند الطفل لكن سنه وخبرته المحدودين يحولان دون إدراكه هذه الحقيقة الممنوعة.

إن عملية اللمس الاستكشافي الذي يقوم بها الطفل تُعتبر حركة بريئة تدخل في إطار الفضول الطفولي وحب الاطلاع، فهو لم يدرك بعد الوظائف الحقيقية لأعضائه ولا الأحاسيس والمشاعر التي يمكن أن تخلفها، فالقضية بالنسبة إليه تدخل في إطار اللعب واللهو الطفولي الخالي من الأحكام المسبقة.

وحاول كينزي Kenzy أن يثبت أن لعب الطفل الذكر بعضوه التناسلي يخلق لديه نوعاً من المتعة (Kenzy, 1998 : 55). كما أكد كل من كابلان وباكواين Kaplan & Backwain " أن هناك عنصر جنسي في الممارسات الطفولية والدليل على ذلك أن الطفل ينزعج عندما يتدخل الأبوان لمنعه من اللمس والمتعة" (Bergeret, 1989 : 12).

يعتقد علماء النفس أن التركيز على الممنوعات وتخويف الطفل من اللمس يؤدي إلى غرس مخاوف عميقة في ذهنه، وتبرز هذه المخاوف من الاختلافات بين الذكر والأنثى، فالطفل الذي يرى جسد أخته عارياً ويلاحظ الاختلاف بينهما، يُكوّن صورة من نسيج خياله ويعتقد أن ضرراً ما قد أصابها ومن المحتمل أن يلقي هو أيضاً ذات المصير.

الجسد وهوأجس الآباء

من ماذا يخاف الآباء؟ هل من اكتشاف الطفل لجسده واللعب به، أم من الإحساس الذي يمكن أن يمنحه اللعب؟

إن عملية الإمتاع الذاتي للطفل لعملية تلقائية طبيعية، وما يجعلها تتحرف على طبيعتها هو تدخل الكبار الذين يمثلون المجتمع وكما يقول جون جاك روسو "كل شيء يأتي من الطبيعة فهو جميل وحسن وخير طالما لم تمتد إليه يد الإنسان" (Durant, 1967 : 889)، إذ أن المنع الذي يفرضه الآباء لا

يسري على باقي الأعضاء في جسم الطفل، وإنما يقتصر على الأعضاء التناسلية فقط.

يحتاج الطفل الناشئ إلى دعم المنشئ له وعنايته به وتوجيهه في عملية التنشئة التي يقدمها له، ولكن غالباً ما يغفل المنشئ التكفل بالتنشئة الجسدية ويتغاضى عن وظيفتها عمداً ويتجاهل طبيعتها وحاجتها للنمو السوي، وينكر على الناشئ الحق في اللعب والاستمتاع بأعضائه.

والسؤال الذي يطرح نفسه يتمثل في كيفية نقل الآباء والمشرفين على التربية صورة الجسد للأطفال؟ وما هي المعطيات التي تُنقل أثناء عملية التنشئة؟ وما هي الأشياء التي يتم تغييرها من قبل حراس البوابة؟

لا تتم عملية النقل هذه بمعزل عن التأثيرات الخارجية للمنشئ، فهذا الأخير ينقل العادات والتقاليد بضغط القيم والمعايير التي اتفقت عليها الجماعة ويتقبلها المجتمع، الذي بدوره يمارس قهراً على الفرد حسب "أميل دوركايم" (غيث، دت: 46). فالمنشئ يؤمن بأنه يحمل منظومة متناسقة من القيم والمعتقدات في أغلب الأحيان ثابتة لا تتغير، خاصة في الأمور التي اتفق عليها عرفياً بأنها ممنوعة، فينقلها للناشئ بعد تغليف الممنوع منها بشيء من الأكاذيب والخرافات.

ترتبط العديد من الإشكاليات الاجتماعية والثقافية والنفسية وحتى السياسية بموضوع الجسد حيث جرت العادة على أن تُقرن فكرة الجسد بالجنس وبالفعل الجنسي، الأمر الذي يُحوّل الفكرة لدى القائمين على التنشئة إلى نوع من "الفوبيا". فالآباء والأمهات خاصة يرفضون مناقشة الموضوع مع أبنائهم، إما لأنهم يعتبرون الأمر غير أخلاقي ومناف للدين، أو أنهم لم يتلقوا أي نوع من أنواع التربية الجنسية، أو لأنهم يشعرون بأن الكلام عن الجسد والجنس والخوض فيهما قد يؤدي إلى انحرافات جنسية لدى الأطفال والتعرض للحياة الخاصة للوالدين. وقد يتعلق الأمر بعملية الإدراك الخاطئ للقضية من الأساس، فالصورة التي يُرمجها الإنسان في عقله تخضع لما تلقاه من معلومات وأحكام وتفسيرات تشكلت وفقاً لمجموعة من المتغيرات من بينها التنشئة الاجتماعية، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى السكوت والتحفظ على الموضوع.

ينبغي الفاعل الاجتماعي أثناء عملية التنشئة من البيئة الاجتماعية والثقافية ما يراه هواماً بغض النظر عن مدى أهميته بالنسبة للناشئ، وينقله وفق اتجاهاته ومعاييره حتى يتطابق مع ما يُسمح به اجتماعياً.

إن انتماء المنشئ إلى ثقافة معينة وحمله لرصيد ثقافي معين اكتسبه عن طريق التلقين وعبر عملية التنشئة وعن طريق القائمين عليها، يجعله يجلب الناشئ بطريقة مباشرة أحياناً وغير مباشرة أحياناً أخرى إلى دائرة انتمائه، أي إلى ما يعتقد ويؤمن به. فيتأثر الناشئ بالرصيد الذي يتلقاه والذي ينعكس بدوره على سلوكه عبر ثنائية مدخلات / مخرجات، حيث تمثل المدخلات الأفكار التي يحملها المنشئ عن الذات وعن الجسد وعن نفسه، والمخرجات هي سلوكيات الناشئ. فالذات هنا تصبح هي ذلك الكل المنظم الذي يتأثر بعوامل التنشئة الاجتماعية وبنفسية المنشئ وبإدراكه وفهمه وطريقة نقله للمواضيع وحتى سلوكياته وتصرفاته.

يقول كولن ويلسون Collin wilson: "إن شخصيتك وقدراتك ترجع كلية إلى المحيطين بك، إنك لا تتعلم فقط لغة والديك أوتقتدي بتصرفاتهما، لكنك تتعلم أيضاً أن ترى العالم من خلال عيونهما، مهما كانت درجة اختلافك عنهما أو معهما وكأنهما وضعاً نظارة سوداء على أنفك تظل ثابتة بنية عمرك" (ويلسن، 1997: 35).

يتعرف الطفل من خلال والديه على العالم ويتعلم التعامل مع البيئة الاجتماعية المتواجد فيها، والامتثال للأساليب السلوكية المنتهجة في هذه البيئة. ويُعتبر موضوع الجسد من بين المواضيع التي يُطل عليها الطفل من خلال هذه النظارة السوداء التي وضعها المنشئون على عينيه، وأصبح ينظر إلى الأشياء من خلالها. ويُعتبر الجسد موروثاً ثقافياً يدخل في حدود الممنوع، والمسكوت عنه في عملية التنشئة الاجتماعية، وبالتالي ينظر إليه من خلال هذه النظارات السوداء التي وضعها المنشئون على أنوف الناشئة مشوهين الحقيقة باسم العادات والتقاليد.

ومن الخطأ في اعتقادنا تغليف موضوع الجسد والجنس بالأكاذيب والأساطير لأنها ستكون لدى الطفل تصورات ومعتقدات خيالية غير سوية وحتى قناعات قد تشكل له معضلة مستقبلاً.

وتجدر الإشارة أنه من أسباب تعقد الأبناء جنسيا هو التزام الآباء الصمت إزاء قضية الجسد والمسائل الجنسية وإصاق القيم الدونية بها والتركيز السلبي عليها، مما يجعل الطفل يتلقى الرسالة بشكل سلبي ويجعله يدرك حتماً وجود شيء خاص بهذه الأعضاء يدخل في الممنوع. فيبدأ عندئذ بالتركيز عليها تركيزاً سلبياً خاطئاً، حيث يتناسى - الأولياء - أنه أصبح أكثر من ضرورة أن يتعرف الطفل على جسده وأعضائه خاصة من الناحية الوظيفية. فالآباء والمشرفون على عملية التثنية يجهلون، أو يتجاهلون عن قصد، أهمية التربية الجنسية في التثنية ويركزون على الجانب الاجتماعي والأخلاقي، متجاهلين أن هذا النوع من التربية تُعدُّ الطفل لحياة جنسية طبيعية وعادية خالية من المشاكل والعُقد النفسية، مبنية على قواعد علمية صحيحة.

الجسد بين المسموح به والممنوع

يرى H.Wallon أن الطفل كائن اجتماعي منذ ولادته، مستعملاً عبارة "الطفل اجتماعي وراثياً"، يتبنى تدريجياً هويته من خلال علاقاته مع الآخرين (Collin, 2002 : 88). إن المحيط الذي يعيش فيه الطفل يسمح له باستعمال القدرات الكامنة في برنامج الوراثة مع استعمال طاقات جديدة تصقلها تجارب المحيط من حين لآخر.

كما سبق ذكره، يكتشف الطفل وهويته في حدود سن الثالثة الفوارق التشريحية بين الجنسين إما عن طريق اللمس أو النظر إلى أعضاء التناسلية أو إلى أعضاء الجنس الآخر، وهنا يتدخل المربون باللوائح التي تُؤسس لإشكاليات الرفض في ما بعد، "لا تلمس، لا تنظر، لا تكشف جسمك". ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يتعداه إلى الترهيب والتخويف بتوظيف الجانب العقائدي التأديبي.

وعبر هذه المراحل يشرع الضمير في عملية النمو عندما يُدرك الممنوعات، ابتداءً بعدم الاقتراب من النار مثلاً لغاية عدم لمس الأعضاء التناسلية. ومع التقدم في السن تتسع دائرة الأوامر والنواهي لتشمل مجمل المعايير والقيم المتعارف عليها اجتماعياً، خاصة ما يجب فعله وما لا يجب القيام به.

ينظر الطفل إلى جسده من الزوايا العقلية والنفسية. فعلى مستوى الجانب العقلي حيث تتكون لديه أسئلة جوهرية، مثل ما هو الجسد؟ ما هو العضو؟

لماذا لا أُلْمسه؟ ماذا يخفي؟ أما الجانب النفسي فيحتوي على مشاعر الطفل، وغضب الوالدين، والتوبيخ...

تُبالغ فئة من الآباء والمربون في ردود أفعالهم عند ملاحظة اقتراب الناشئ إما بالكلام أو باللمس من المناطق المحظورة الممنوعة، وتُلصق جميع الأوصاف الذميمة والقبیحة بهذا الفعل الذي قام به الطفل عن غير قصد، فتدخل العملية في باب الحرام والعيب والممنوع الذي يعاقب عنه بالنار والحرق وغيرها من أساليب التخويف والترهيب التي يتقن المربون في اختلاقها. وهناك فئة أخرى من الأولياء تلجأ إلى تهديد الطفل بالتوقف عن الاعتناء به "تدليله" ومقاطعته، الأمر الذي يخلق لديه مخاوف تكبر بتطور أساليب الردع والتخويف المستعملة.

عند هذه النقطة يحق لنا أن نتساءل عن طبيعة القيم التي تنقلها الأسرة لأبنائها عبر عملية التنشئة؟ من المفروض أن تنقل الأسرة كل ما تراه من وجهة نظرها صالحاً وهاماً من البيئة الثقافية والاجتماعية، وتقوم بتأويله وتكييفه حسب اتجاهاتها. وبهذه الطريقة تفتح للنشء نافذة ينظرون منها إلى الأشياء الإيجابية والسلبية من خلال النظرة السوداء التي وُضعت على أنوفهم وأصبحت جزءاً هاماً من الرصيد الثقافي للمجتمع، تتوارثها الأجيال بلونها الأسود والغير قابل للتغيير. فالناشئ ينظر إلى الموروث الثقافي من خلال وجهة نظر أسرته التي تطبعه بطابعها الخاص. وتصبح التنشئة بهذا المفهوم، حسب Durkheim، جهداً متواصلاً يأخذ منه الطفل ألواناً من الفكر والعاطفة والسلوك (غيث، دت: 113).

يقع المربون في كثير من الأخطاء في تربية الطفل في علاقته مع جسده، فهم يحملون بداخلهم ومن تنشئتهم وتربيتهم بعض المخاوف والشكوك من جملة المواضيع التي ينقلونها للناشئ، ويُعتبر موضوع الجسد الأول بامتياز حيث يتكتم عليه المنشئ ويشكل حرجاً كبيراً له، إذ أنه لا يعرف كيف يتعامل معه. يلجأ المنشئ في التعامل مع موضوع الجسد إلى الترميز والتشفير والإيحاء والتشبيه الذي يُبعد ويشوه الصورة والمعنى الحقيقيين، حيث يعجز الطفل على فك رموز الرسالة التي يحرص المنشئون - أوبالمعنى الأصح "حراس البوابة" - على تشفيرها حتى تصل بنفس الطريقة التي نُقلت

إليهم، متناسين أو متجاهلين كل التغيرات والتطورات التي طرأت على المجتمع وقيمه.

وعليه، تكون عملية نقل موضوع الجسد بمثابة عملية تصفية لكل ما قد يُشوه الصورة حيث يحرص الأولياء كل الحرص على أن لا يرى أبناءهم جسداً عارياً، أو أي عضوم الأعضاء التي وضعوها في خانة الممنوعات. وجسد الأنثى هو الجسد الذي يحرص الكل على عدم ظهوره عارياً، واضعين بذلك معيار تفاوت بين الممنوعات حسب النوع (ولا مجال هنا للخوض في هذا الجانب من الموضوع).

يوضح لنا Piaget أن الطفل يتعرف عن طريق التنشئة الاجتماعية على الأساليب السلوكية التي عليه أن يمتثل لها وكيفية التعامل معها، وتشمل العملية كذلك الراشدين الذين تلقوا هم أيضاً تنشئة ساهمت بقدر كبير في تشكل إدراكهم لموضوع الجسد ونظرتهم للأشياء الممنوعة والمسموحة اجتماعياً بقوله أنه "من السهل فهم الوظيفة العقلية للراشد مادام أننا نعلم كيف تم تكوين الهياكل العقلية" (Wallon, 1981 ; 63).

خلاصة

يمكننا القول أن الطفل يكتسب، عبر عملية التنشئة الاجتماعية التي يخضع لها، أنماطاً سلوكية تعكس قيم ومعايير المجتمع الذي يعيش ويتواجد فيه، وبالتالي تتكون شخصيته وتتموتأثرة بهذه البيئة وبالمحيط الثقافي السائد. وبهذه الكيفية يُلقن الناشئ الأطر المرجعية التي ينسجم من خلالها مع الآخرين، وتجعل منه كائناً اجتماعياً.

ومما لا شك فيه أن عملية التنشئة لا تخلو من الأخطاء التي يرتكبها المنشئون من خلال سعيهم إلى نقل السلوكيات "الحميدة" وتجنب "المنبوذة". فالتنشئة تقوم على نقل القيم والمعايير، أو بمعنى أدق الموروث الثقافي، كما حددها المجتمع وبواسطة الأسرة، المكلفة بعملية التلقين.

في معظم الأحيان تتأثر عملية النقل بشخصية الناقل وبالمجتمع وخصوصيته، فهي مزيج بين ما هونفسي، واجتماعي، وأنثروبولوجي، وديني. وعبر هذه الأبعاد تتكون مفاهيم وسلوكيات الناشئ. فينظر إلى الأشياء التي تلقاها تقريباً بنفس منظار المنشئ ويتعامل مع المواضيع من خلال ما نُقل إليه، وبالطريقة نفسها تقريباً التي نُقلت إليه.

يتعامل الناشئ مع موضوع الجسد بالكثير من الحذر، فهو لا يحصل على أجوبة حقيقية عن تساؤلاته واستفساراته، فتغيب عند الطفل الحقيقة بحجة أن الجسد يدخل ضمن دائرة "الممنوع" فينظر إلى جسده بكثير من القلق والحيرة، غير قادر على فهم أسباب المنع والابتعاد عن بعض الأعضاء دون الأخرى. يزداد الأمر تعقيدا بالنسبة للناشئ عندما يكتشف بعد سن الرابعة والخامسة أن الجسد مقسم إلى مساحات خضراء يمكن الاقتراب منها وأخرى حمراء لا يجوز ولا يسمح له الكشف عنها.

وتزداد حدة قلقه حينما يخضع لرقابة مشددة في موضوع الجسد تدفعه إلى الانعزال والانطواء، خوفاً من توبيخ وغضب الوالدين أو معاقبتهم له.

يغيب عن ذهن المربين أن الطفل خلال عملية الاستكشاف الجسدي يكون غير مدرك لوظيفة أعضائه ولا يستطيع حتى التفرقة بينها، لهذا لا يشعر بالحرج الذي يشعر به الوالدين كلما اقتربت يده من العضو "الممنوع" أو كلما لمس، فيقابل بالمنع والتوبيخ دون شرح أو تفسير. إن التصرفات غير الراشدة التي يلجأ إليها المنشئون في ما يتعلق بموضوع الجسد، تغرس في الناشئ مخاوف عميقة من ردود الأفعال هذه، والنابعة في الأصل من الموروث الثقافي للمنشئ الذي اكتسبه هو الآخر من تشئته وطفولته ويحرص على نقلها بأمانة.

رسخت الذاكرة الجماعية في أذهان الفاعلين الاجتماعيين أن الجسد يعني الغريزة الجنسية، فهو يُقرن دائماً بالجنس وبالتالي يُعتبر طابوها اجتماعياً يجب التكتّم عليه. لهذا يلجأ المنشئ أثناء عملية التشئة إلى إخفاء الحقيقة، بالكذب وتشويه صورة الجسد. فحارس البوابة يختار، ويُقرر، ويُصدر الأحكام، ثم ينقل قوانين المجتمع الصارمة إلى الطفل من خلال نفس النظرة السوداء التي وضعت له.

المراجع

- أبوجادو، محمد صالح (1999)، سيكولوجية التشئة الاجتماعية، عمان: دار المسيرة.
- فوكو، ميشال (2006)، وهم الحقيقة، ترجمة: مصطفى المسناوي، ط 1، منشورات بيت الحكمة.
- كهن، فردريك (1998)، الطفل والجنس: من الولادة حتى البلوغ، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديد.
- محمد، عاطف غيث (د.ت.)، علم الاجتماع: النظرية والمنهج والموضوع، القاهرة: دار القاهرة للنشر.
- ويلسون، كولن (1997)، الجنس والشباب الذكي، ترجمة: أحمد عمر شاهين، القاهرة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر.
- Bergeret, Jean (1989), La Sexualité infantile et ses mythes, Paris: Seuil .
- Bollit, Dominique & Schmit, Jean-Pierre (2002), La Socialisation, Editions Breal, Collection: Thèmes et débats sociologiques.
- Bourdieu, Pierre (2000), Esquisse d'une théorie de la pratique, Paris : Seuil.
- Carroll ,J.B,(1989), Human cognitive abilities: A Survey of factor-analytic studies, New York: Cambridge University Press.
- Collin, Alfred (2002), L'évolution psychologique de l'enfant, Paris : Armand Colin.
- Dubar, Claude (1999), La Socialisation, construction des identités sociales, Paris : Armand Colin collection.
- Durant, Will (1967), The Story of Civilization, Vol.10.
- Freud, Sigmund (1989), Trois essais sur la théorie sexuelle. Paris: Gallimard.
- Kinsey, Alfred (1998), Sexual behaviour in the Human Male, New York: Sage publications.
- Lottisse, Jean (2009), La communication : de la transmission a la relation. 4eme ed., Bruxelles : De Boeck.
- Maslow, Abraham (2013), Devenir le meilleur de soi : Besoins fondamentaux, motivation et personnalité, Eyrolles.
- Wallon, Emile Jally (1981), Lecture de Sigmund Freud et Jean Piaget: Trois études sur la psychanalyse, Paris: Editions la dispute.